المقالة السادسة عشرة
فی قوله سبحانه : ﴿الله ولیّ الذین آمنوا﴾

و فیه لوائح :

اللائحة الأولی
فی اللغة

الولی : فعیل بمعنی فاعل من «الولی» الذی هو القرب من غیر فصل ، و هو الذی یکون أولی بالغیر وأحق بتدبیره ، و منه یقال للمحب المعاون «ولی» ؛ لأنّه یقرب منک بالمحبة و النصرة و لایفارقک ، و من ثمّ قالوا فی خلاف الولایة «العداوة» من «عدا الشیء» إذا جاوزه ، فلأجل هذا کانت الولایة خلاف العداوة .

و منه «الوالی» ؛ لأنّه یلی القوم بالتدبیر و بالأمر و النهی ، و منه «المولی» ؛ لأنّه یلی أمر العبد بسد الخلّة و ما به الیه الحاجة . و منه «المولی» لابن العم ؛ لأنّه یلی آمره بالنصرة لتلک القرابة . و منه «ولی الیتیم» ؛ لأنّه یلی أمر ماله بالحفظ و القیام علیه . و الولی فی الدین و غیره ؛ لأنّه یلی أمره بالنصرة و المعنونة لما توجبه الحکمة ، فجمیع هذه المواضع معنی الأولی و اللاحق ملحوظ فیها .

و ولّی عن الشیء : إذا أدبر عنه ، لأنّه زال عن أن یلیه بوجهه . و استولی علی الشیء : إذا احتوی علیه ، لأنّه ولیه بالقهر .

والله سبحانه ولی المؤمنین علی ثلاثه أوجه :

أحدها : أنّه یتولاهم بالمعونة علی اقامة الحجة و البرهان لهم فی هدایتهم .

و ثانیها : أنّه ولیّهم فی نصرهم علی عدوهم و اظهار دینهم علی أدیان مخالفیهم کلّها .

و ثالثها : أنّه ولیهم ، یتولاهم بالمثوبة علی الطاعة و المجازاة علی الأعمال الصالحة .

و هذه الوجوه الثلاثة ممّا ذکره الشیخ أبوعلی الطبرسی فی تفسیره الکبیر[1] و سیأتیک تحقیق الحق إنشاء الله .

---

۱ . مجمع البیان ، ج۲ ، ص۱۶۴

اللائحة الثانية

فی النظم

لمّا ذكر الله تعالى المؤمن و الكافر أراد أن يبيّن ولى أمور كلّ منهما و داعى أشواقهم و اراداتهم و حركاتهم، فقال: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾ـ أى: نصيرهم و معينهم فى كلّ ما بهم اليه الحاجة و مافيه الصلاح فى أمور دينهم و دنياهم و آخرتهم، و يشوقهم الى منتهى قصدهم و مرمى غرضهم و يوصلهم الى أعلى مقاماتهم و كراماتهم.

اللائحة الثالثة

فی لميّة اختصاص المؤمنين بولاية الله سبحانه

اعلم أنّ فى هذا المقام اشكالا عظيماً يعسر حلّه على ذوى الأفهام، لأنّک قد علمت من الأصول التى أفدناک فيما سبق ـ من تقديس الله تعالى عن وصمة الكثرة و التغيّر و التفنّن فى الاضافات و الاختلاف فى النسب و الاضافات ـ أنّ وجوده عام و رحمته شاملة للكلّ على نسق واحد، أعطى كلّ ذى حقّ حقّه و أفاض على كلّ قابل مايستحقّه، فلو كانت لمادة البصل ـ مثلا ـ قوة قبول الزعفران و لنطفة البقر قبول صورة الانسان لماترک الواهب الأشرف الأفضل و ما فاض عليهما البقر و البصل.

فاذا تقرّر ذلک، فولاية الله تعالى إن تعلّقت بالمؤمنين قبل قبولهم دعوة الايمان، و استكمالهم بالعلم و العرفان، فانّ ذلک ترجيح من غير مرجّح، و إن كانت بعده يلزم الدور لكون الايمان مسبّباً عنها، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾؛ لأنّ منشأ ايمانهم الذى هو عين تنوّرهم بنور المعارف و خروجهم اليه من ظلمات الجهل و العمى هو هذه التولية، فلو كانت بعد الايمان يكون دوراً بالضرورة.

و هذا الاشكال صعب الانحلال عند من يحذو حذو أهل الاعتزال ـ القائلين بالتحسين و التقبيح العقليين فى الأفعال، و استحالة الترجيح من غير مرجّح ـ.

و أمّا الأشاعرة المجوّزون لايجاد القبائح و ترجيح أحد المتساويين، فالأمر هيّن عليهم، بل هم احتجوا بهذه الآية على تصحيح مذهبهم، و إنّ ألطاف الله تعالى فى حقّ المؤمن فيما يتعلّق بالدين أكثر من ألطافه فى حقّ الكافر، قائلين أنّ الآية دلّت على أنّه تعالى ولى الذين آمنوا على التعيين، و معلوم أنّ الولى لشىء هو المتولى لما سيكون سبباً لصلاح الانسان و استقامة أمره فى الغرض المطلوب لأجله، كما قال الله تعالى: ﴿يصدّون

عن المسجد الحرام و ما كانوا أوليائه إن أولياؤه إلّا المتّقون﴾(الأنفال(٨) : ٣٤)، فجعل القيم بعمارة المسجد ولياً له، و نفى فى الكفار أن يكونوا أوليائه.

فلمّا كان الولى المتكفل بالمصالح، ثمّ إنّه تعالى جعل نفسه ولياً للمؤمنين على التخصيص، علمنا أنّه تعالى تكفّل بمصالحهم فوق ما تكفّل بمصالح الكفار.

قالوا: فهذه الآية مبطلة لقول المعتزلة بـ«إنّ الله تعالى قد سوى بين المؤمن و الكافر فى الهداية و التوفيق و الألطاف».

و ربّما يجاب من قبل القائلين بالاعتزال ـ كالزمخشرى و غيره ـ : إنّ هذا محمول على زيادة الألطاف كما فى قوله سبحانه: ﴿و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم﴾ (محمّد(٤٧) : ١٧)و قوله: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً و على ربّهم يتوكّلون﴾(الأنفال(٨) : ٢).

و تقريره من حيث العقل: إنّ الخير و الطاعة ممّا يدعو بعضه الى بعض و ذلك لأنّ المؤمن إذا حضر مجلساً يجرى فيه الوعظ، فانّه يلحق قلبه خشوع و خضوع و انكسار، و يكون حاله مفارقاً لحال من قسى قلبه بالكفر و المعاصى و ذلك يدل على أنّه يصح فى المؤمن من الألطاف ما لايصح فى غيره، فكان تخصيص المؤمن بأنّ الله وليهم محمولا على ذلك.

و هذا الجواب ممّا ذكره الامام الرازى فى التفسير الكبير نيابة عن المعتزلة[1] و هو غير سديد من وجهين:

أحدهما:

أنّه غير حاسم لمادة الاشكال على الوجه الذى قرّرناه، إذ لاحدّ أن يجرى الكلام فى سبب أصل الهداية و التوفيق و سياقتهما من الله فى حق بعض أفراد الانسان حتى صار من أهل الايمان، و سبب الضلالة و الخذلان و سياقتهما منه فى حق بعض آخر حتى صار من أهل الكفر و العصيان.

فنقول: إذا كانت نسبة الهداية و التوفيق واحدة من الحق تعالى فى الجميع على أصولكم، فما وجه اختصاصهما ببعض الناس حتى يكون مؤمناً، و اختصاص مقابل كلّ منهما ببعض آخر حتى يكون كافراً؟ فحينئذ لايتمّ الجواب، و لم يبق مهرب عن لزوم الترجيح من غير مرجّح فى هذا الباب.

---

١. تفسير الرازى، ج٧، ص١٩

و ثانيهما : أنّ للاشاعرة أن يقولوا لهم : إنّ زيادة الألطاف متى أمكنت وجبت عندكم ، و لايكون لله فى حق المؤمن إلّا أداء الواجب ، و هذا المعنى بتمامه حاصل فى حق الكافر ، بل المؤمن فعل ما لأجله استوجب ذلک المزيد ، فيكون ولى المؤمن هو المؤمن نفسه الذى فعل ما لأجله استوجب من الله ذلک المزيد من اللطف هذا و ستسمع متّالبّ التحقيق .

و ربّما يجاب عن أصل اشكال بوجوه أخرى من المقال جارية على نهج الاعتزال :

أحدها : أنّه تعالى يثيبهم فى الاخرة و يخصّهم بالنعيم المقيم و الاكرام العظيم ، فكان التخصيص محمولا عليه .

و يرد عليه مثل ما يرد على الوجه المذكور آنفاً ـ تحقيقاً و جدلا ـ بأن يقال : ذلک الثواب واجب على الله تعالى على أصولهم ، فولى المؤمن هو الذى جعله مستحقاً على الله ذلک الثواب ، فيكون وليه نفسه .

و ثانيها : أنّه تعالى كان ولياً للكلّ بمعنى كونه متكفلا بمصالح الكلّ على السوية ، إلّا أنّ المنتفع بتلک الولاية هو المؤمن ، فيصح تخصيصه بهذه الاية كما فى قوله : ﴿هدى للمتقين﴾ (البقرة(٢) : ١) .

و يرد عليه أنّ هذا الأمر الذى به امتاز المؤمن عن الكافر فى باب الولاية صدر من العبد لا من الله تعالى ، فكان ولى العبد ـ على هذا القول ـ هو العبد نفسه لاغيره .

و ثالثها : أنّه تعالى وليهم ، بمعنى أنّه يحبّهم ، والمراد منه أنّه يحب تعظيمهم .

و يجاب أنّ «المحبّة» معناه : اعطاء الثواب . و ذلک بعينه هو الوجه الأوّل من هذه الوجوه ـ و قد مرّ الايراد عليه .

اللائحة الرابعة

فى التخلّص عن أصل الاشكال على طريقتى الحكماء و الصوفية

أمّا على طريقة الحكماء، فمثل ما يقولون فى دفع الاشكال الوارد عليهم فى اثبات الصور النوعيّة للأجسام الطبيعية ، فانّهم لمّا أثبتوا تلک الصور فى الأجسام بواسطة ثبوت الآثار و اللوازم المختلفة فيها بأن قالوا : «الجسميّة أمر واحد فى الجميع ، فلو لم يوجد فى بعض الأجسام صورة منوعة و فى بعض آخر صورة منوعة أخرى يلزم فى ترتّب بعض الآثار لبعض منها ـ كالحرارة فى النار ـ و ترتّب بعض أخرى لبعض آخر ـ كالبرودة للماء ـ ترجيحاً من غير مرجّح» .

أورد عليهم أنّ هذا بعينه وارد عليكم عند اثبات تلک الصور ايضاً، فانّ اختصاص جسميّة النار بصورتها الخاصة دون غيرها، و اختصاص جمسميّة غيرها بغيرتلک الصورة كجسمية الماءِ بصورته مع استواء الجميع فى الجسميّة المطلقة المشتركة ممّا يوجب الترجيح من غير مرجّح.

لكنّهم أجابوا عن ذلک ـ بعد ما أحكموا بيان تحققها و جوهريّتها بوجوه أخرى ـ أنّ اختلاف تلک الصور مستندة إمّا الى اختلاف الاستعدادات السابقة كما فى العنصريات، أو اختلاف المواد كما فى الفلكيّات، أو اختلاف الجهات و الحيثيات الحاصلة فى المبادى الفعّالة العقلية سيّما العقل الأخير كما عند المشائين، أو اختلاف ذوات تلک المبادى العقليّة كما عند الرواقيين القائلين بكثرة العقول التى فى الطبقة العرضية على حسب تكثّر الأنواع الجسمانيّة، أو اختلاف صورها العلمية الواقعة فى عالم القضاء الالهى أو القدر الربانى الموجودة فى القلم الأعلى العقلانى أو فى اللوح المحفوظ النفسانى على الوجه المقدس عن التغيّر ـ بخلاف الصور الجزئيّة الواقعة فى القدر الانطباعى السماوى لتغيرها بالمحو و الاثبات ـ أو اختلاف الصور الربانيّة المسماة بالعناية الالهيّة ـ عند من جوّز قيام علم الله تعالى بذاته ـ أى العلوم التفصيليّة.

فكذلک يقال فى انحلال ذلک الاشكال، و ايراد السؤال عن لميّة اختصاص المؤمن بولاية الله تعالى و الاكرام و الافضال، واختصاص الكافر بمقته الموجب للنكال، من حوالة هذا التخالف بينهما فى الهدى و الضلال، و السعادة و الوبال و الثواب و العقاب بعد الايمان و الكفر الى أمور سابقة موجبة، و مقدّمات متأدية مقتضية، و هكذا الى أن ينتهى الى أمور قضائية الهيّة.

و هذه سنّة الله التى لاتبديل لها، و حكمته التى لامزيد عليها، و لافتور يعتريها من ربط الأشياء بالعلل و الأسباب، و ربط الأسباب بالمسبّبات، الى أن يبلغ الى قدرته و ارادته وجوده و حكمته الموجبة لايصال كلّ شى الى خير يليق به و كمال يؤثر عنده، و الحافظ لها عن كلّ شين ونقص يعتريه، و شرّ و آفة يلحقه بقدر الامكان.

فالخير مرضى و الشرّ مقضى، و لكلّ منهما طالب لايسكن إلّا لديه، و لاينزعج إلّا اليه.

فهذا أنموذج لهذا المقام، و قد بقى بعد من الشكوک ما لاينحل إلّا ببسط فى الكلام مع اشتغال شديد من المريد السالک فى تحقيق المرام، ليتجلى له من الحق ما يتجلى للحكماء الكرام أو الأتقياء العظام.

و أمّا على طريقة أهل التصوف فبأنّ الله تعالى فى ذاته و فى عالم الهيّته شؤوناً و حيثيات مسماة بأسماء و صفات، كما يعرفه أهل الله لاعلى وجه يقدح فى أحديّته الحقّة، و هو سبحانه مع تلك الشؤون و الحيثيات مبدأ للكلّ و عالم بالأشياء و قادر على جميع الممكنات، و لو خرج شىء من الأشياء من علمه و قدرته و تأثيره و ايجاده بواسطة أو بغير واسطة لم يصلح لمبدئيّة الكلّ، و هو مع ذلك منزّه عن فعل القبائح و الشرور و لكن لا بالوجه الذى بلغ فهم المعتزلة اليه، و إلّا لناقض كونه مبدءاً للكل، و فى كونه مالك الملك.

بل الوجه أن يقال: وجود العالم بجميع أجزائه و أفراده المتكثرة و المتخالفة على هذا الوجه المشاهد ظلال لأسمائه المتعدّدة المتخالفة، على وجه كالأوّل و الاخر و الظاهر و الباطن، و لكلّ منها أثر خاص و مظهر و معلول معيّن كالمبدع والكائن، والمحسوس و المعقول.

و على هذا القياس فنقول: إنّ للّه سبحانه صفتى لطف و قهر و من الواجب فى الحكمة أنّ الملك ـ و لاسيما ملك الملوك ـ يكون هكذا، إذ كلّ منهما من أسمائه الحسنى و من أوصاف الكمال، و لايقوم أحدهما مقام الاخر و من منع ذلك كابر و عاند، و لابدّ لكلّ من هاتين الصفتين من مظهر.

فالملائكة و من ضاهاهم من المؤمنين و الأخيار مظاهر اللطف، و الشياطين و من والاهم من الكفار و الأشرار مظاهر القهر، و مظاهر اللطف هم أهل الجنة و الأعمال المستتبعة لها، و مظاهر القهر هم أهل النار و الأعمال المعقبة إيّاها. فخلق الله تعالى للجنة خلقاً يعملون بعمل أهل الجنة، و للنار خلقاً يعملون بعمل أهل النار.

فكما أنّ وجود كلّ من صفتى اللطف و القهر ممّا لابدّ فيه فكذا لابدّ من وجود مظاهر كلّ منهما بحسب كلّ مرتبة، و كما لا اعتراض لأحد عليه تعالى فى وجود أصل المظاهر و المعاليل لكونها من لوازم الالهيّة و آثار الربوبيّة، فكذا لا اعتراض لأحد عليه فى تخصيص كلّ من الفريقين بما خصّصوا به، فانّه لو عكس الأمر لكان هذا الاعتراض بحاله.

و من هاهنا تظهر حقيقة السعادة و الشقاوة، فمنهم سعيد و شقى، و الايمان و الكفر، فمنهم مؤمن و منهم كافر، و تظهر حقيقة كونه تعالى ولى الذين آمنوا و عدو الذين كفروا ـ و إنّما وليهم الطاغوت، فالله سبحانه موصوفاً بصفة اللطف ولى المؤمنين و عدو الكافرين أيضاً، و إن كان من جهة الرحمة المطلقة و الفيض العام و الجود التام يوجدهم و يرزقهم و يعطيهم المال و الجاه و يجيب دعائهم و يسمع ندائهم.

و فى هذا المقام أسرار لايجوز التصريح بها؛ لأنّ ضرر سماعها للطبائع الغير المرتاضة

أكثر من نفعها .

فاذا تؤمّل فى ما بينّا يظهر أنّ هذا الترتيب و التميّز فى الوجود من لوازم الترتيب و التميّز الواقع فيما سبق من الأحكام الأزليّة الناشية من معدن الالهيّة و العلم السابق الالهى ، و يعلم أنّ ولاية المؤمن من الله قبل ايمانه بالذات .

كما روى عن رسول اللهﷺ : «إنّ خلق أحدكم يجمع فى بطن أمّه أربعين يوماً نطقه ، ثمّ يكون علقة مثل ذلک ، ثمّ يكون مضعة مثل ذلک ، ثمّ يبعث الله اليه ملكاً بأربع كلمات ، فيكتب عمله و أجله و رزقه و شقى أم سعيد» .[1]

فان قلت : إذا كانت السعادة و الشقاوة بالقضاء ، و الايمان و الكفر بالقدر ، فأىّ فائدة فى بعثة الرسل و انزال الكتب؟

قلت : فائدتهما بالحقيقة ترجع الى المؤمنين ، الذين جعل الله بعثم و انزالها سبباً و واسطة لاهتدائهم . ﴿إنّما أنت منذر من يخشاها﴾(النازعات(٧٩) : ٤٥)، كما أنّ فائدة نور الشمس تعود الى أصحاب العيون الصحاح .

و أمّا فائدة ذلک بالنسبة الى المختوم على قلوبهم فكفائدة نور الشمس بالنسبة الى الأكمه ﴿و أمّا الذين فى قلوبهم مرض فزادهم رجساً الى رجسهم و ماتوا و هم كافرون﴾(التوبة(٩) : ١٢٥) . غاية ذلک الزام الحجة و اقامة البيّنة عليهم ظاهراً ﴿لئلّايكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾(النساء(٤) : ١٦٥) ، ﴿و لو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت الينا رسولا﴾(طه(٢٠) : ١٣٤) و هو فى الحقيقة للنفى عليهم بأنّهم فى أصل الخلقة ناقصون أشقياء .

أقول : فيه وجه آخر و هو أنّ لكلّ شىء بحسب قصده و غلبة الطبيعة أسباب و علل بها يتوجه الى حيّزه الطبيعى و معاده الأصلى ، فمن الأسباب المؤدية للأشقياء الى درک الشقاء و هى بعينها الأسباب التى تسوق السعداء الى الدرجات العلى مثل ارسال الرسل و انزال الكتب .

فانّ هذين الأمرين ـ الارسال و الانزال ـ كما يوجبان ظهور ما يمكن فى النفوس الشريفة ـ من آثار الكرامة و العلم و المروّة و التقوى و الصفات الحسنة و الأفعال الجميلة ـ فكذلک موجبان للنفوس الخبيثة ظهور ما يمكن فيها من الحماقة و الجهالة و حبّ الدنيا والشهوات ، فيوجبان للنفوس الخبيثة زيادة فى جحودهم و استنكارهم و شدة فى غيظهم و استكبارهم .

أمّا ترى أنّ بالوعظ و النصيحة ينكشف و يظهر من حال قساوة بعض القلوب التى هى

---

١ . عوالى اللئالى ، ج١ ، ص٨٢، ح٥ ؛ صحيح البخارى ، ج٤ ، ص١٠٣

كالحجارة أو أشدّ قسوة مالا يظهر قبل ذلک، فعند سماع الايات يستحكم لكلّ من القبيلتين ما هو مركوز فی جبلّته من الصفات ـ إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ.

كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قد جائكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه و من عمى فعليها و ما أنا عليكم بحفيظ﴾(الأنعام(۶): ۱۰۴)و قوله تعالى: ﴿و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فانّما يهتدى لنفسه و من ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين﴾(النمل(۲۷): ۹۲)فانّ فيها اشارة الى نور القرآن يظهر و يكشف جوهر الهداية و الضلالة فی معدن قلب الانسان السعيد والشقی، كما يظهر و يكشف ضوء الشمس الذهب و الحديد فی المعادن.

و كذا قوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً و يهدى به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين﴾(البقرة(۲): ۲۶) و آيات كثيرة فی هذا المعنى.

و قال عليه و آله الصلوة و السلام: «الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة».[۱]